الفصل الثالث:

المسامرات والفكر الإصلاحي

موضوعات المسامرات:

العلم والتعلم:

اهتم الحجوي الأب والحجوي الابن بموضوع العلم والتعلم، بمناسبة افتتاح المعهد العلمي الأعلى بالرباط: ألقى الحجوي الأب مسامرة يشيد في البداية بالسلطان يوسف وجهوده في سبيل تطور البلد ورقيها خاصة في مجال العلم والأدب، ومنها إنشاؤه للمعاهد العلمية باعتبارها علامة دالة على رقي الأمم وتطورها.

المعهد العلمي العلى والمكتبة الملحقة به:

ثم ينتقل للحديث عن أهمية هذا المعهد في تأهيل أبناء الوطن في مجالات شتى كالأدب والحقوق والترجمة، واحتضانه للطلبة المغاربة والجزائريين والتونسيين والفرنسيين، وتمتين العلاقة بين الأمتين المغربية والفرنسية، مشيرا إلى أهمية المكتبة الموازية للمعهد وهي الأولى من نوعها في المغرب، مكتبة حديثة فسيحة تذكر بمكتبات الأسلاف في المغرب والمشرق كمكتبة قرطبة في الأندلس واحتوائها لأنفس الكتب والمخطوطات بالآلاف، ومكتبات الخواص كمكتبة الناصر والحكم المستنصر، فضلا عن المدارس كمدارس المرينيين، ومكتبة القرويين، ومكتبة باب دكالة في مراكش وهي من بناء مسعودة الوزكيتية ام النصور السعدي، ويتأسف على ضياع الكثير م محتوياتها بسبب قلة النظام.

يعبر الحجوي عن سروره بإقبال الطلبة على المكتبة من العدوتين والزوار من العلماء المغاربة والفرنسيين لتبادل الأراء والأفكار، حيث تنتفي الخلافات للغوية والعرقية، ثم يتقدم بالشكر الجزيل للدولة الحامية في سعيها لتقدم المغرب ونهضته من خلال نشرها للعلم والتمدن والعمران لذلك نراها شيدت المعاهد العلمية في كل قطر احتلته كالجزائر وتونس والشام بل الأقطار الجنبية كتركيا ومصر التي شكلت فضاء حيث أقام نابليون نهضة علمية، وعلى شاكلته سار المارشال ليوطي في المغرب.

التأليف المدرسي والترجمة:

ينتقل الحجوي للحديث عن ضرورة تأليف الكتب في مضمار التربية والتعليم، والاعتناء باللغة العربية كلغة صالحة لذلك من خلال ابتكار المسميات العلمية في التعليم والإدارة، وترجمة المفردات الأجنبية، والانفتاح على اللغات الأخرى، حيث يتم استعاب مسميات الاختراعات والاكتشافات ومسميات الإدارة والدواوين، وضرورة تحسينها وتهذيبها ونقدها كما حصل قديما بأسواق عكاظ والمجمعات العلمية زمن العباسيين والفاطميين، بشكل يجعل منها لغة شبيهة باللغة الفرنسية لغة العلم والتجارة والسياسة:

الإحالة إلى نماذج تعليمية:

هذه المسامرة بهذا العنوان، هي خلاصة مشاهداته ومرئياته خلال رحلة قام بها إلى الجزائر وتونس بدءا باستعراض مشاهد زراعية من الجزائر بنوع من الإعجاب (أعجب ما يرى من حيث كثرة الأشجار وانتشار البناءات وتعمير البلاد وإتقان الفلاحة، فلحقني عجب عظيم وظننت ان الأراضي العامرة التي مررت عليها خلقت بدون دوم ولا حجر كما هي الآن)[1]، واعتقد الرجل ان هذه الإنجازات من الجزائريين لكنه تأكد بعد استفسار وتساؤل أن الأمر يعود للفرنسيين (بينما الأوربيون يغرسون الدوالي والأشجار الهامة ويعمرون بها الأراضي الموات، كان المسلمون يستهزؤون ويسخرون منهم)، وفي محاولة منه لفهم أسبا ب تخلف الجزائريين مقارنة باللأوروبين واليهود يذكر: عدم فهم أسرار القرآن وعدم الاهتداء بسنة النبي صلى الله عليه وسلم، وجهل الأمهات باعتبارهن المدرسة الأولى واستغراقهن في المأكل والملبس والمشرب، وانتشار الانحراف والقيم المذمومة في صفوف الأولاد، عدم الاهتمام بالعلوم والمعارف والمدارس، ويضرب مثلا من تونس (ولما وصلت إلى تونس شاهدت بها من العمارة ما ملأ قلبي سرورا إذ جميع مكاتبهم القرآنية على أقصى درجة من النظام)[2]، ويستطرد المسامر في الحديث عن التربية التونسية من حيث إنشاء المدارس والاهتمام بالمناهج، وتكوين المدرسين خاصة في جامع الزيتونة التي تخرج الأطر العالية.

---

(١) نفسه ص٣.

(٢) نفسه ص٤.

الإحالة على النموذج الإسرائيلي في التعليم:

يعود المسامر للحديث عن تعليم اليهود والتجارة والصرافة، وعدد المتعلمين من اليهود على قلتهم العددية، وعدد الجهلة من المسلمين على كثرتهم، الذين لم يتمكنوا من قراءة الجريدة الرسمية وبالتالي عدم اطلاعهم على الظهائر والمراسيم التي لها ارتباط بمصالحهم.، ويختم المسامر بالإشادة بالمسيو ليوطي في تقديمه لدروس في الحقوق بواسطة المسيو قاني ملتمسا من المسيو مارتي ترجمة تلك الدروس إلى العربية.

أخيرًا يلتمس المسامر من ليوطي ومساعديه الجنرال دو شرف، والكمندان والمسيو مارتي والقبطان لوكفل والمسيو طروشي العمل على تنزيل مضمون مسامرته خاصة في التعليم.

نقد الفكر والسلوك الطرقي:

بدأ عبد السلام السرغيني مسامرته بالتعريف بالبدعة والسنة عند الأصوليين لغة واصطلاحا وفي القصد من السنة ونبذ البدعة، وفي ضرورة الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم وفي الأثر عن السلف الصالح، ويتابع الحديث عن نماذج من البدع من قبيل التضرع بالأوثان وبناء المساجد عند المقابر واتخاذ القبور مساجد، وبعض المظاهر الشركية مثل أكل الزجاج وإشعال النار في الأبدان، وانتهى إلى ذكر بعض الآثار المترتبة عن البدع (من المنقول عن الملل والنحل والمشهور في الأواخر والأول أن المناكر والبدع إذا فشت في قوم أحاط بهم سوء كسبهم وأظل ما بينهم وبين ربهم، وانقطعت عنهم الرحمات)[1].

يقف المسامر كثيرًا عند بدعة الصوفية في الرقص، ويستعرض أقوال العلماء كالغزالي والطرطوشي في رفض الرقص عند الصوفية، كما وقف عند الطرق والطوائف الصوفية (فصار الأمر عصيًا، وصارت الأمة بذلك طرائق قددًا)[2]، كما يستنكر اتخاذ الزوايا بديلا للمساجد لإقامة الصلوات وبناء الأضرحة محاكاة لبيت الله الحرام من جعل الكسوة وتحديد الحرم وسوق الذبائح والمواسم.

---

(١) البدعة والسنة ص ٢٩

(٢) نفسه ص٣٣.

يقف أيضًا عند ظاهرة الشوافات ويدعو العلماء إلى تنبيه الناس إلى هذه المنزلقات من باب الإصلاح استنادًا إلى حديث الغرباء، ويدعو الناس إلى اتقاء الشبهات والاستبراء للعرض والدين، ويلتمس من السلطان الحرص على السنة، ويختم المسامرة بالشكر الجزيل للمارشال المحبوب من طرف الأمة جمعاء وكذا الكمندان مارتي.

الاهتمام باللغة العربية:

نالت اللغة العربية حظًا وافرًا من اهتمام المسامرين نظرا للوضع المتردي التي أصبحت علية هذه اللغة في ضوء محاولة الحماية الرفع من شان المازيغية، وتبني اللغة الفرنسية في التعليم، وفي هذا السياق يتحدث النميشي بمرارة (ولا يجهل أحد ما للأمم الحية الراقية من الشغف بلغاتها والذب عنها والسعي الحثيث في إيصالها إلى مستوى الإكبار والإعجاب وإلباسها حلل التحسينات الملائمة لترقية العصور والتي تجملها في أعين عشاقها المغرمين بها. ما ترقت أمم من الأمم ولا ضرب لها بسهم في الحياة إلا بمحافظتها على لغتها وصونها من أن تعبث بها يد عابث أو يشير لها مشير ببنان احتقار)[١] وبعد اسعراضه لأمثلة من اهتمام الدول الغربية بلغاتها خاصة الفرنسيين الألزاس رغم الاحتلال الألماني، ينعي واقع اللغة العربية (وإذا كان هذا مبلغ اعتناء القوم بلغاتهم... فكيف يكون الحال من يدعوه الدين إلى المحافظة على لغته...وهو حال الناطقين بالضاد الذين بعث إليهم نبي عربي في بلاد عربية بلسان عربي، وأنزل عليه من فوق سبع سماوات كتاب عربي)[٢] (الذنب محمول على عاتق أهلها الذين فرطوا فيها كأنهم لم يعلموا أن التفريط فيها تفريط في المجد والدين..)[٣] ويعطي مثالا بواقع اللغة العربية من خلال تلاوته لقصيدة حافظ ابراهيم المصري.

البعد الإصلاحي في المسامرات:

اهتمت المسامرات بتناول موضوعات أكاديمية صرفة من قبيل الشعر والشعراء المغاربة والعرب القدامى، الكتابة والخطابة، الكتاب والخطباء، وهي موضوعات يمكن الكلام عليها في سياق الترف الفكري، أو تذكير الاستعمار بالتراكمات التي حققها

(١) الشعر والشعراء ص ٣

(٢) نفسه ٥

(٣) نفسه ص ٥.

العرب والمغاربة في هذه المجالات، في الماضي المجيد . لكنها اهتمت في الكثير منها بالجانب الإصلاحي بتناول موضوعات حول مداخل الرقي والتقدم، ونذكر في هذا السياق مسامرات الحجوي الأب حول كيفية النهوض بالتجارة والتي لا تخرج عن الخط الإصلاحي لهذا العالم حول التعليم وخاصة تعليم البنات.

وهو البعد ذاته نلمسه عند الحجوي الإبن من خلال مسامرته -العلم وإلا الموت- إذ يقرن الحياة بالعلم والتعلم، ودعوته للمغاربة إلى تعليم أبنائهم إسوة بالتونسين واليهود.

نفس البعد الإصلاحي نجده عند الزواوي حول البدعة والسنة من خلال التنديد بمجموعة من البدع والظلالات خاصة البدع المرتبطة بالتصوف والطرقية، الشيء الذي يضفي على مسامرته بشأن البدعة والسنة البعد السلفي الإصلاحي، وهي موجة فكرية سادت المغرب في العشريات الأولى من القرن العشرين إسوة بالمشرق العربي حيث تعالت الأصوات بالرجوع نحو الأصل الصافي للدين والتدين كمدخل للحيلولة دون الفكر الخرافي والأسطوري.

هو البعد الإصلاحي ذاته نجده عند النميشي في دعوته للاهتمام باللغة العربية باعتبارها المدخل الهام لدراسة العلوم والمعارف، واعتباره العلم والتعلم المنطلق الأساسي للنهضة.

بالإضافة إلى هذه الأفكار اللإصلاحية، شكلت الرحلات الشخصية او السفارية مناسبة للمسامرين من اجل التعرف عن كتب عن منجزات فرنسا الاستعمارية في الجزائر وتونس (رحلتيي الحجوي الأب والإبن)، أو الرحلات نحو أوربا وفرنسا بوجه خاص، ونقلها للمغاربة على سبيل ضرب المثل في الرقي والتقدم (رحلة الحجوي الأب ورحلة الفاسي نحو فرنسا).

كانت هذه الرحلات مناسبة للتعرف على مظاهر الرقي والتقدم بأوربا، فقد زار الحجوي فرنسا سنة ١٩١٩ ضمن الوفد الرسمي الذي بعث به السلطان يوسف ، وقد سجل مرئياته في رحلته المشهورة (الرحلةالأوروبية)، ونفس الشيء فعله الفاسي في وصفه التفصيلي لباريس في رحلته (حديقة التعريس).

كان المسامرون أشد إعجابًا باهتمام الحماية الظاهري بقطاع التعليم من حيث بناء المدارس والمعاهد، بناء المدارس الابتدائية في البوادي والمدن، بناء الثانويات في المدن العريقة كفاس والرباط في أفق استيعاب أبناء الأعيان وتكوين النخب، وبناء المعاهد كالمعهد العلمي الأعلى بالرباط، والذي كان موضع إشادة وتنويه من قبل الحجوي وغيره، ويعزى هذا الإعجاب لكون معظم هؤلاء المسامرين علماء مدرسون ، بل ومسؤولون عن قطاع التعليم كما هو الحال بالنسبة للفقيه الحجوي، الذي كان مندوبا للمعارف زمن الحماية، وأحد الداعين إلى إصلاح نظام التعليم بالقرويين، واحد الداعين إلى تعليم البنات ، كما يعزى إلى كون جل المسامرين كانت تحدوهم الرغبة في الإصلاح والتحديث، فضلا عن أسلوب ليوطي في استمالتهم وإقناعهم بجدوى السياسات الفرنسية في ظل احترام الإسلام والتقاليد المغربية، لكن السؤال الذي يطرح نفسه ، إلى أي حد يعتبر هؤلاء المسامرون مخدوعون من قبل الحماية؟ خاصة في ظل الأعمال التي كانت تمارسها الحماية من قبيل قمع الثورات، ودعم الخونة من القيادات المحلية ، والمناورات المضادة لهوية البلد ضدا على اللغة العربية والإسلام بإصدار مجموعة من الظهائر كالظهير البربري، والعمل بالأعراف في المناطق البربرية بدلا من الشرع، ومصادرة ممتلكات الأهالي، وترسيخ الفرنسية كلغة بديلة ومحمولاتها الإديولوجية، وعرقلة مشاريع الإصلاح الحقيقية كمشروع إصلاح القرويين.

يبدو أن الرغبة في الإصلاح والتحديث، والطموح في الخروج من وضعية الجهل والتخلف كان سببًا في التعاطي الإيجابي للعلماء المسامرين، وعجز المخزن عن القيام بأي مبادرات من شأنها بلورة مشاريع الإصلاح، فكانت الحماية ومشاريعها هي الحل.

سجل مطلع القرن العشرين مسرحا لبلوغ الفكر السلفي إلى المغرب بتأثير من المشرق، وصحوة العمل الوطني، ونجد للسلفية المشرقية صدى في المسامرات المذكورة من حيث العودة بالدين إلى أصوله الأولى بعيدا عن الخرافة والبدعة والأسطورة، ومن حيث التأكيد على مسألة التربية والتعليم.

الفكر الإصلاحي ما قبل وأثناء الحماية:

بالنظر إلى الفكر الإصلاحي خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وخلال النصف الأول من القرن العشرين هل يمكن الحديث عن نوع من الاستمرارية أو القطيعة ما دامت الظروف مختلفة والسياق مختلف.

ظل الفكر الإصلاحي للقرن التاسع عشر يجعل من الجيش مدخلا لمواجهة الآخر، ذلك الآخر الذي يجهل عنه كل شيء، فالهزائم العسكرية وملحقاتها الدبلوماسية وتبعاتها على الدولة والمجتمع، جعلته يقترح وصفات في كيفية الرقي بالجيش لاكتساب القوة الضرورية لمواجهته، واقترح اقتباس النموذج من الآخر من حيث الخبرة والتنظيم والتسليح.

لكن الفكر الإصلاحي لفترة الحماية حيث أصبح الآخر محتلا ومستعمرا وأمرا واقعا، اقترح التعليم والتعلم والعلوم مدخلا لاكتساب القوة، عبر تأهيل الأهالي وانتشالهم من براثن الجهل والأمية، ما دام أن الإصلاح العسكري الذي قام به المخزن لم يكن ناجعا في الحيلولة دون الهزيمة والسقوط تحت نير الاحتلال.

ظل الفكر الإصلاحي للقرن التاسع عشر محكوما بمدافعة الآخر عسكريا، لذلك تمحورت أدبيات الغالي اللجائي والفلاق السفياني والسوسي السملالي والكردودي لا تتجاوز إصلاح الجيش في مؤلفات معظمها منقول عن الأدب الفارسي واليوناني والفكرالإسلامي الوسطوي.

لكن فكر الحماية ظل محكوما بمعرفة الآخر عن قرب بوجوده على أرضنا، وامام استبعاد إمكانية المواجهة معه، تمحورت أدبيات مسامرات الحجوي والنميشي والرندي والفاسي وابن الأعرج السليماني وغيرهم حول أهمية العلم والتعلم كمدخل للرقي والنهضة.

نماذج من المسامرات

مسامرة أخلاقية

ألقاها بنادي المسامرات بالمدرسة الإدريسية الأديب الفاضل الشهير سيدي عمر ابن المرحوم التاجر التالي كتاب الله سيدي الحاج الحسن الحجوي العضو بالمجلس البلدي الفاسي سامحه مولاه سنة ١٩٢٣.

العلم وإلا الموت

يقول العبد الفقير المعترف بالعجز والتقصير عمر بن الحاج الحسن الحجوي: قد طلب مني بعض أهل العلم والفضل طبع المسامرة التي سامرت بها في المدرسة الثنوية الفاسية يوم الخميس ثالث جمادى الأولى عام ١٣٤٢ فأجبت مطلبهم وأسأل الله أن يكون ذلك خالصا لوجهه الكريم، وأن يكون النفع بها عميمًا.

سادتي؛

لا تظنوا أن جسارتي على صعود منصة الخطابة، هي مغالطتكم بادعائي معرفة العربية وفن الخطابة، كي أشبه نفسي بمن سبقني من الخطباء في هذا النادي، كلا ثم كلا، لأني أعرف من نفسي القصور التام، وإنما أردت أن ألقي على مسامعكم بعض المشاهدات معبرا بما ساعدت به الأقدار، فإن وجدتم ألفاظا وافقتكم فإنما هي نتيجة مرافقتي بعض سادتنا العلماء، الذين خالطتم مدة حياتي وتعاطي بعض دروس في معرفة لغة الأجداد، وإلا فإني قبل كل شيء معدود من التجار الذي لم يسمح لهم الزمان بتعاطي العلوم العربية التي تهيئهم للافتخار بقول الشاعر:

ولســـت بنحـــوي يلـــوك لســـانه ولكنـــي أعرابـــي أقـــول فـــأعرب

أفصح الكلام ما أفاد العموم.

فإذا علمتم هذا فعذري من الآن بين، نعم هناك غلط عند الناس لا بد من رفعه، وهو أن المقصود من الخطبة تبادل الأفكار في المعاني الحقيقية دون قشور الألفاظ، لكن من جمع بينهما فقد حصل على الخصلتين المحمودتين، وعليه سادتي حيث أني متيقن التحصيل على قبول المعذرة، فاسمحوا لي أن أطرق المقصود بالذات خدمة في إخواني الوطنيين، وتشجيعًا لعقلاء التجار الذين لهم أفكار عالية يمنعهم من إلقائها

خوف اللحن، وأخص من بينهم السادات أعضاء المجلس البلدي وتلبية لحضرة المسيو مارتي في إلقاء هذه المسامرة التي موضوعها رحلتي الجزائرية التونسية. هذا وإني سأطرق مواضيع شتى يحتاج كل منها إلى مسامرة خصوصية لا يسعها وقتنا القصير، ولهذا أرجوكم أيضًا العفو عن عدم شفاء الغليل في كل المواضيع الهامة التي ستلقى عليكم.

لا معنى لكثرة الإطراء عن التسهيل الذي حصل في الأسفار بسبب النظام، إذ كلكم تعلمون ما كنا نقاسيه من المشاق وكثرة المصارف في السفر إلى مثل وجدة والمكث بعض الأحيان زمانا طويلا لعدم إمكان عبور الأودية، ونفور الحمارين، وبخلاف الحالة الحاضرة، فإنها مكنتنا من الوصول إلى أغراضنا بسهولة عظيمة.

طالما كنت أحاول معرفة الحقائق من أفواه المسافرين الذين سبقوني إلى القطرين الجزائري والتونسي، ولكن كان جواب لسان حال الجميع : ليس من رأى كمن سمع، وقصدي في ذلك هو معرفة مستقبل وطننا العزيز، لأن أحوال جيراننا الجزائريين والتونسيين أفضل مدرسة لمن كان يعقل منا، إذ بهما تعرف الغلطات التي ارتكبها إخواننا، فأخرت تقدمهم إما ماديا أو أدبيا فنعدل عنها، والحسنات التي عادت عليهم بالخيرات فنحذو حذوهم فيها.

أفضل مدرسة للمغاربة الجزائر وتونس:

وليست هذه المدرسة صالحة لنا فقط، بل قد اتبع برنامجها الإفرنسويون قبلنا بحيث أن أكثر رجال الاستعمار، بل حتى كبراء الدولة درسوا مسألة القطرين الجزائري والتونسي درسا مهما للتوصل إلى المسلك اللائق بالسياسة الإسلامية.

فبمجرد ما فارقت وجدة وحللت بالقطر الجزائري، رأيت مناظر من أعجب ما يرى من حيث كثرة الأشجار، وانتشار البناءات وتعمير البلاد وإتقان الفلاحة، فلحقني عجب عظيم وظننت أن الأراضي العامرة التي مررنا عليها خلقت بدو دوم ولا حجر كما هي الآن، وحمدت الله للجزائريين الذين رزقوا أرضا كهاته ظنا مني أنهم هم المعمرون لها، وقلت في نفسي يا للعجب كيف كنت غالطا في ظني أن أخصب الأقطار الثلاثة هو المغرب مع أن أكثر بلادنا دوما وأحجارا.

ما غابت عليهم غير الموت.

فلما بحثت بعض الركاب الذين كانوا في رفقتنا، علمت أن ما كنت أعتقده هو عين الحقيقة، وأن أراضي المغرب أكثر خصوبة من غيرها، إلا أن رجال الإصلاح أدخلوا على القطر الجزائري التحسينات المشاهدة، وعمروا البلاد في كل جهاتها، واستنتجوا خيراتها بالأعمال الشاقة التي لم يرد المسلمون اتباعهم فيها حتى صاروا أصحاب بطالة لا عمل، نعم بينما الأوربيون يغرسون الدوالي والأشجار الهامة، ويعمرون بها الأراضي الموات، كان المسلمون يهزؤون ويسخرون، فلما أفاقوا من نومهم لم ينفعهم إلا تكرار (ما غابت عليهم غير الموت).

ومهما بلغ مسامعهم تحصيل الأوربين على الأثمان الباهضة ببيع غللهم التي هي نتيجة نشاطهم في العمل، تنفسوا الصعداء ندما على إهمالهم، ولكن خففوا على أنفسهم قائلين: هذه جنتهم لا تمكن محاصرتنا لهم، أما نحن فإننا من أهل الآخرة، مع ان ديننا والحمد لله يأمرنا بالجمع بينهما بالكد والاجتهاد ومحاربة الجهل بعد تزيين المساجد وتعميرها في أوقاتها الخمس.

فلما شاهدت ماذكر دارت بي الأرض دورتها فصممت على معرفة الأسباب التي اوصلت إخواننا هذه الدرجة، وقلت: لا بد في ذلك من دخول البيوت من أبوابها، ولا باب في ذلك أحسن من سؤال أهل الذكر منهم، فلما جمعتني الأقدار ببعض عقلائهم كان أول سؤالي لهم: أرى الجزائريين مع ما يظهر عليهم من اللطف والذكاء متأخرين في دنياهم تاركين الأراضي بيد الأوربيين والتجارة بيد اليهود، أفتوني في أمري أيها السادات، لقد ضاق صبري وأرجوكم أولا جوابا مجملا لكي يطمئن خاطري، ثم التفصيل إن سامحت لكم الأقدار، إذ معرفة ذلك تهمني من وجوه أفضلها، الاطلاع على مستقبل بلادي التي هي عندي أعز من كل نفيس، ولكني أقدم ما أسمع منكم إلى إخواني المغاربة حتى لا يسقطوا في مثل هذه الهاوية، فأجابني أحدهم: أما الجواب الإجمالي فهو عدم فهمنا أسرار القرآن الكريم، وتساهلنا في اتباع سنة المصطفى العظيم عليه الصلاة والتسليم.

وأما الجواب التفصيلي، فإن كنت غير أيها السيد فها نحن لك من المجيبين:

فساد الأمم منشؤه عدم تربية الأولاد:

(التربية الأولى) فإنها عقيمة عندنا جدا، وقد قال الحكماء:إن كثر الفساد في الأمم منشؤه عدم تربية الأولاد، فسرح بصرك سيدي في بلدتنا فلا تجد ولدا حاملا راية الافتخار بالعلوم والمعارف، بل ما من ولد رأيته في طريقك إلا ما قل إلا وهو لابس رداء الكبرياء بما عليه من الثياب الفاخرة إن كان من أولاد الأغنياء كأنه عروس يوم زفافها أو متحسر شر ما لقيه من صعوبة يومه إن كان من أولاد الفقراء، كل هذا والآباء ينظرون بعين لا يفارقها الخجل كأنهم لم يسمعوا طول حياتهم ما قال سيد المرسلين:(كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته)، ولا يغرنك من حمل الأولاد أدوات القراءة وخروجهم من المدارس، فإنهم بسبب إهمال آبائهم الذين لا يتفقدونهم بل ربما يعينونهم على التغيب لعذر موسم أو نزهة أو فرجة في طبل أو بندير أو غيطة، وأيامنا والحمد لله كلها مواسم وأفراح كما لا يخفاكم حتى يبقى فكر الولد أفرغ من فؤاد أم موسى.

المدرسة الأولى هي الأم:

وما ينتج على سبيل الصدفة إلا من له فكر وقاد أو كان يتيما من الأم، إذ لا أخفي عليك شيئًا أنتم السادات المغاربة لا تقولون به وتنقمون على مدعيه وهو أن أكبر الإهمال الحاصل لأولادنا هو من أمهاتهم الجاهلات أو المتعلمات تعلما ناقصا، لأن أول المدارس عند الأمم الراقية هي الأم، وما توصل غيرنا من المسلمين لحوز قصبة السبق في مضمار العلوم والمعارف إلا بعد مشاركة المرأة بعلها في علمه وتربية أولاده، بتعليم لغة القرآن العظيم التي تؤهل ابن الإسلام إلى الذوق والرقة، وفهم كلام الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وما كان عليه السلف الصالح من مكارم الأخلاق الذين سادوا في العالم وملكوه في مدة يسيرة.

كيف لا والولد يمكث بين يدي أمه ساعات عديدة من يومه، بينما الأب في أشغاله مكدا على مؤونة عياله، وهي تقص عليه مباشرة أو بواسطة دادا حكايات الغول والجنون وبنات السلاطين اللائي رفعهن العفريت، وغير ذلك من الخرافات التي تملأ بها فكره المهيإ بطبيعته لتعاطيه جميع ما تعلمه الإبن الأوروباوي من علوم نافعة وصنايع مهمة، عوضا عن استمدادها المعونة لإسماعه الآيات القرآنية التي تحض على

ممارسة الخير والفضيلة، ومشاركتها في مراعاة حفظ الصحة في منزلها، وتدريس فن الأخلاق وعلوم النفس، ومعرفة أسرار فواها كي يجمع أهل منزلها من زوج وأولاد بين صحة الأبدان ومتانة العقول المقترنة بالأخلاق المحمدية، وتعهد طفلها إذا رجع من المكتب صباحًا ومساءً، وحثه على التعليم بلطافة، وتحذيره من مخالطة الأولاد المنهمكين فيما لا تحمد عقباه من شرب الخمر وغيره، وتعليمه كيفية النظافة كتقليم أظافره وحك أسنانه، إذ إهمال ذلك يولد أمراضا عديدة منها داء السل والعياذ بالله، وتحضه على الصلاة في أوقاتها، وتبعده قدر الإمكان من جميع الخصال المنهي عنها شرعا كالكذب والغيبة والنميمة وشهادة الزور، وتعلمه أسباب الرجولية كي يحترم نفسه منذ صغره، وتعرفه مكانة شرف نفسه، أما نساؤنا فغالبهن بكل أسف عاريات عن جميع هذه الخصال، بل ربما تعودن تربية أولادهن على خلاف ما ذكرت لكم ظنا منهن أن محبتهم هي إعانتهم على عدم مشقة القراءة والسرف في اللباس والانهماك في كثرة المأكل والمشارب على غير نظام، وكأن المكتب في نظرهن إنما احدث لفك رقبتهن من لعبه في وسط الدار، وما أظن أن نساؤكم بفاس على هذا النمط.

ولسوء تربيتنا الأولى تسلطت على أفكارنا الأوهام والخرافات، وانتشرت فينا البدع التي ما أنزل بها من سلطان، وأعظم ما حصلنا عليه بهذا الإهمال الافتخار بإدماننا على المعاصي وشرب الخمور حتى ذهبت أموالنا أدراج الرياح، مع أننا لو كنا نعقل لعلمنا أن نتيجة تعاطي الخمور هو الجنون وإيقاع العداوة والبغضاء، وترك ذكر الله والغفلة عن الصلاة والوقوع في الفحشاء، لما يكثر في الشارب من الأيمان التي ربما أدت به إلى تحريم زوجه، زيادة على الأمراض التي تعتريه ويرثها منه أبناؤه.

ومما زادنا سقوطا تعاطينا القمار على اختلاف أصنافه حتى خربت بيوتنا، ومن جملة مهالكنا تعاطينا الربا حتى صرنا أسارى للمقرضين، وعبادتنا الجنون بواسطة المرياحات، وتعظيمنا كل المناكر التي حلت بنا بواسطتهن، وبالأسف لم تتمش خزعبلاتهن على قاصرات العقل من النساء فقط، بل تسلطن أيضًا على بعض الرجال فصاروا ينتظرون منهن الشفاء من كل داء وبلية، والمحافظة على الخطط العالية والتوسعة في الرزق وغير ذلك مما يطول شرحه ويخجل الانسان عن ذكره، فمن كان باكيا فليبك على ما وصلت إليه أخلاق الأمة الإسلامية.

وإياكم أن يقع لكم مثل ما وقع لنا في أيام دخول الدولة من إهمالنا نصائح الناصحين في التعليم محتجين بأن البلاد بلادنا والتجارة تجارتنا والفلاحة بأيدينا ونحن مطمئنون آكلون شاربون، وأفراحنا قائمة ومساجدنا مفتوحة فما لنا ولهؤلاء المتمشدقين من الجهال الذين يدعون النصيحة ويطلبون منا تعمير المدارس والمحافظة على ما بأيدينا بالعلم لا بالعمل القديم الذي عاقبته الزوال والاضمحلال، وكنا مهما حضرنا مسامرة نافقنا صاحبها قائلين لافض فوك وأنا لك من السامعين، وفي سرنا شتمناه، وفي زمرة المتمشدقين أنزلناه وقلنا ما هذه الأفكار الافرنسوية محضة، وما حمل هذا الرجل على منصة الخطابة إلا حب التقرب لهم ولبقائه بلا شغل.

وبينما كانت هذه الأفكار فينا رائجة، كان بنو إسرائيل بواسة جمعيتهم المسماة بالاتحاد الإسرائيلي يعمرون المدارس، فلما فازوا بنتيجة عملهم تبدلت أحوالهم وساروا في كل سنة يفتحون الفنادق التجارية التي سدها البنوك للمسلمين، ومع هذا لم نكن ننتبه للخطر كله حيث أننا كنا إذا سمعنا مصيبة مسلم من فلس او غيره فرحنا بنقصه من عدد التجار، وقلنا لقد فرغ لنا الجو وزال عنا مزاحم في الحرير والسكر مثلا، وإن زاد على هذا غيره تعاظم نشاطنا وقلنا المصيبة إذا عمت هانت، مع أن غيرنا لا يعطي المصيبة أهمية إلا إذا كانت عامة. هذه هي سيرتنا نحو بعضنا بعضا، أم إذا سمعنا ان دارا تجارية أوربية أو إسرائلية ذات رأسمال مهم فتحت أبوابها نشطنا وقلنا إن زمن التوسعة قد حل، وبادرنا إلى المظارفة معها حتى تقضي علينا، فما طلعت الشمس أو ضحاها حتى وصلنا إلى ما ترى أيها السيد، وفشا فينا الفقر فتذكرنا ساعتئذ ما كان يلقى علينا من التحريض على العلوم والمعارف، ورمنا التنفيد لقراءة أولادنا فأجابنا الفقر (الآن وقد امتنعتم قبل وكنتم من الغافلين) ومنعنا مما حاولناه القل، فما كاد أن يفرغ السيد مما ذكر حتى امتلأت حزنا وقلت ياللعجب كيف قضت هذه المصائب على الإسلام وكيف عم اشتراكنا فيها حتى دخلت جميع أقذارنا، بل ما تركت دارا من ديارنا إلا وهي فيها كامنة الله الله لنا، أنحن الوارثون الحكم القرآنية والنصائح المحمدية والسيرة السلفية، أنحن أبناء أولئك الأبطال الذين خلا فكرهم من غير الله.

وقد تلجلج في صدري إذ ذاك كي أبقى عظيما أنا وقومي في عين المجيب بكتمان ما عندنا من الأوهام والخرافات التي تزيد على ما عندهم بأضعاف، ولكن حب الحقيقة الزمني أن لا أكتم عليهم الطبق والمجرا والشطح بالكبر المحلات بالآلاف من الأحجار

الثمينة وزينة عجل الكرابة واختلاط الحرابر بالشيخات وأدبنا مع النكافات وما نتفاخر به في منابر البنات، وبخلنا بحق الأربعاء للأستاذ ونشاطنا بما ندفعه ونحن فارحون للماشطات خصوصا عند حملهن ابياضيات، وتفريطنا في الفقراء الذين ينامون ووطاؤهم الأرض وغطاؤهم السماء في أزقة الحرم الإدريسي وبوطويل، تلك الحالة التي تتفتت منها الأكباد وتقشعر منها الجلود وتخر لها الجبال هدا، وغير ذلك من البدع التي لا يفي وقتنا القصير بشرحها والتي إن دامت ولم يتفق الرأي العام على إزالتها ومحقها، فإنها تؤدي إلى ما لا تحمد عقباه من حيث لا نشعر، مع أن يجب علينا أن نخاطب نفوسنا صباحا ومساءا بأن الوقت تبدل، كيف لا والمعاش في قلة والضرائب في ازدياد، وغلاء المعيشة في ارتفاع، وأنتم ترون فرقة كبيرة وقفت حركتها بسبب الأزمة الاقتصادية الضاربة أطنابها على العالم أجمع، فما لنا إخواني لا نبادر إلى ترك التفاخر المذموم على بعضنا بعضا الممتثلين فيه لأمر كلمتين خبثتين سكنتا في نفوسنا وأخذتا منها حضا وافرا ألا وهما: (ماشي صواب) (وحشومة) كأنهما مكروب دخل في دمنا والعياذ بالله، فما لنا لا نبحث عن تلقيحه مع أنه قتال.

إنكم ترون العالم الشرقي والغربي يبرق لنا في كل يوم ولحظة أخبار علومه ومعارفه في معترك الحياة، فما لنا لا نغبطهم في ذلك ونتبعهم في كل شيء إلا فيما يمس بديننا فنتباعد منه مع ان خلقتنا واحدة. لكن سادتي اول المخاطبين بذلك هم كبراؤنا وليكونوا قدوة للطبقتين الوسطى والسفلى، الله اللله إخواني لا تنسو أن ذا الثلاث بنات يكون غالبا بعد زواجهن في ضيق مما يمكرون، إذ الأولى تأخذ ثلث ماله، والثانية تقضي على الثلث الثاني، والثالثة تتركه خاوي الوفاض والديار بلاقع.

ثم قلت للسادات الجزائريين بعدما بكيت لهم حالتنا انهم من بعض الوجوه أفضل منا بكثير حيث انهم شعروا بسبب هلاكهم وذاقوا معنى: كاد الفقر أن يكون فقرا، فصاروا ينظمون المكاتب القرآنية (ولا يخفاكم ما لها من الأهمية الكبرى) بإدخال العلوم العربية والتوحيد ومبادئ التفسير وحفظ عدة من الأحاديث والأمهات، واسترجاع بعض أراضي أجدادهم التي كانوا باعوها وضحوا دراهمها في سبيل البدع المشار لها، وإحداث الملاجئ الخيرية لفقرائهم، وتعمير المداري الدولية حتى نجح منهم بعض الأطباء والأفكضوات والمهندسين (فقاموا بكلمة واحدة وقالوا).

يا للعجب ما كنا نظن أن هذا الداء العضال دخل ديار فاس، وإن لم تريدوا ان يتعاظم فشوه فيكم فعمروا المدارس، وزينوا المساجد بالصلوات الخمس، وأزيلوا عن أفكاركم الأوهام واتركوا كل شيء مريد من أهل الفرق الضالة، وحاربوا البدع بما في وسعكم بالخطب والمسامرات، وربوا اولادكم بصرف أموالكم عليهم.

وليكن هم أغنياؤكم ما يقدمونه من الأحباس والتبرعات على المشاريع الخيرية وعلى الأخص المكاتب المنظمة المنظمة الجديدة، لأن ليس للانسان إلا ما سعى، ووجد يوم الفزع الأكبر لا ما يتركه للورثة الذين لا يذكرون بعد موته إلا معايبه في أكثر الأحوال، إن كنتم تحبون الحياة الأبدية فعليكم بالتفاخر الحقيقي مع الله وعباده بهذه الأعمال التي لا يموت صاحبها، فإلى متى هذه الغفلة عن يوم الوحشة في الحفرة المظلمة التي لاتحترم الأغنياء ولا الملوك، فلا رقي للأمة الإسلامية إلا بالعلم ولا علم إلا بالمال. فالأمم الحية يتفاخر أغنياؤها بالتبرعات على المكاتب والمدارس وكل ما فيه نفع لمستقبل الأولاد الذين يعلون بالوطن العزيز الذي محبته من الإيمان إلى أوج السعادة، وما أطلق لسان الشعراء، وأسال أقلام الأدباء عند الأمم الحية غير الرجال الكرام العارفين بأن أحب الخلق عند الله أنفعهم لعياله.

وتعهدوا فقراءكم وهم صغار السن بتعليمهم ما ينفعهم من الفنون والصنائع، وعمروا بهم المدارس الصناعية قبل أن يذوقوا حلاوة السسانية، ولا شك أن الحكام إن رأوا منكم إقبالا عليها يفتحونها لكم وقلوبهم مسرورة.

ولا تهملوا نصائح الحكام في العلوم والمعارف والتجارة والفلاحة، وتحافظوا على تجارتكم بضبط دفاتركم وتنظيم الشريكات، ولا تنسوا تبديل حالتكم من مزاحمة الأوربيين لكم، وفتح البنوك في دياركم التي يمكن أن تسبب ويلا عظيما لمن لم يقدر المصارفة معها حق قدرها وإعطائه عملياتها اهتماما زائدا لأنها لا تذر نقيرا ولا قطميرا إلا وقد أحصته عليكم، وأنتم بغفلتكم القديمة لا تراعونها أتم المراعاة حنى تسقطوا في الحضيض، ولا تلومن ساعتئذ إلا إهمالكم أمركم وفيما حل بكم في عواقب هذه الحرب كفاية.

ولا تتكاسلوا عما يريكم عظاما في عيون الزائرين من الأوربيين، وتباعدوا عن السفاسف في الافتخار المكذوب، وانظروا أنفسكم بالمرآة المكبرة لتروا عيوبكم، ولا

يغرنكم من يمدحكم بما ليس فيكم إذ في الحكم: إن من مدحني بما ليس في فقد ذمني، ولا يبعدنكم التخاذل عن إعانة بعضكم بعضا، ولا تجسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا.

فلما أتم هذه النصيحة المفيدة حمدت الله على وجود أمثاله من الناصحين، وقلت فيا حبذا لو قام كل عالم وخطيب في جيرانه معلنا بهذه النصائح غير مراع لناموس الوقت، وفارقته بعد إعطائه الوعد بالمجاهرة بأفكاره ليعم نفعها بحول الله لما أعهده من الأمة المغربية وعلى الأخص الفاسية من العقل الحاد والامتثال إلى عقلائها وعلمائها وخطبائها، وقد شهد لهم التاريخ باتباع ما يعود عليهم بخير الدنيا والآخرة إن وجدوا ناصحا أمينا يدلهم على الصراط المستقيم.

وما اجتمعنا بسواحين أوربيين على اختلاف أجناسهم إلا وهم معجبون بالفكر الفاسي، وبحسن مستقبل سكان الإدريسية إن عززوا علومهم بالمعارف النافعة، بحيث انهم يفضلونهم من جهة العقل على جميع من رأوا من المسلمين في الشمال الإفريقي، ويا ليت قومي قدروا حق هذه النعمة الشاملة وحمدوا الله عليها باللسان والعمل ألا وهي نعمة العقل، لكن بكل أسف استعملناه في غير ما وضع له، غيرنا سعى به إلى ما يرضي الخالق بالتقوى والعمل الصالح، ورجال الوقت اخترعت به الأشياء المدهشة لتدافع بها على شرفها، ونحن استنبطنا به انواع الشتم والاشتغال ببعضنا بعضا حتى ضاع زماننا فيما لا طائل تحته، مع ان الأخلاق المحمدية التي لا يجهلها غالبنا بالطبع تنهانا عن ذلك، لكن غلب عليها فساد التربية الأولى المركوزة فينا ما بين السادسة والعشرين من العمر فلم يؤثر عليها وعظ الواعظين ولا علم العالمين.

فعلم الأخلاق عندنا موجود ولكن الانتفاع به مفقود، وهذا الداء قتل أمما كثيرة، ولا معالجة له إلا والولد في الطفولية إن حفظه الله من العدوى.

ويسرنا كثيرًا شعور بعض الأمم الإسلامية بهذا الداء ولنعم الشعور، مع ان الأمر سهل على من كان يعقل إذ طعم التربية لايحتاج إلى أكثر من أربعة عشر سنة، وهو أمر لازم لمن أراد الحياة، إذ لا مندوحة من أحد الأمرين: العلم أو الموت.

ولما وصلت إلى تونس شاهدت بها ما يقرب من حيث العمارة مثل ما رأيت في الجزائر، ولكن وجدت بها ما ملأ قلبي سرورا من حيث المعارف إذ جميع مكاتبهم

القرآنية على أقصى درجة من النظام بسبب المدرسين الذين كانوا تخرجوا من مدرسة خصوصية أهلتهم لتربية الشبان، ولهذا المشروع أموال باهضة بسبب التبرعات والأحباس التي تقدم له يوميا وهي مع كثرتها ضاقت على أولادهم لأنهم عرفوا حلاوة العلم ونتيجة العمل، وتيقنوا أن لا مبدأ لمن لم يكن أساس تعلمه القرآن المجيد ولغة العرب وآداب الإسلام، ومن لم تعلق بقلبه محبة دينه فيه وما شب عليه الا وهو الدين الإسلامي الآمر لنا بالجمع بين الدنيا والآخرة، لكن لا لوم على الذين لم يرضعوه في ثدي أمهم، ولم يجتهدوا في تعلمه منذ نعومة أظفارهم إذ اللوم كل اللوم على الآباء، ولذلك السادات التونسيون لما رأوا ما رأوا من إهمال المهذبين بغير القرآن الحكيم في بادئ أمرهم من رفض العوائد الإسلامية وهجران لآثار الأسلاف، قرروا بداية دروس اولادهم في المكاتب المشار إليها والمدارس التي هي على شاكلتها في العربية، والطفل في سن الستة أعوام فلما يبلغ الثانية عشر من عمره ويكون إذ ذاك محصلا على القرآن كله أو بعضه، وعلى مبادئ العربية وشيء من التوحيد ومبادئ الحساب والأمهات والعبادات يوجهونه للمدارس الفرنسوية إن أريد منه اشتراك المعارف الدينية والدنيوية، وللزيتونة إن أحب آباؤه أن يكون من علماء الدين خاصة، لكن مع هذا يكون عارفا بالأحوال الوقتية لا تجري عليه الحيل ولا يندهش مما يرى من التقدم العصري.

وهنا يجدر بي أن لا أنسى أن السادات الحكام على هذا الفكر لا يحبون من لا اعتناء له بدينه وعوائده، ولا تظنوا أن لهم ميلا لمن يريد التشبه بهم في العادات، أو يفتخر بترك العبادات كلا ثم كلا، فهم أعقل من أن يثقوا برجل لا مبدأ له، تاركا لقوميته ودينه مجاهرا بمعاداة إخوانه منقصا لهم في أعينهم، ولذلك أدخلوا في المدارس الافرنسوية الدروس العربية، وعينوا لها أساتذة علماء من أكبر العائلات وأفضل الناس، وأتمنى على الله أن لو سامحت الأقدار لهؤلاء السادات الكرام بزيارة المدارس التونسية وقت البطالة الصيفية على نفقة المخزن السعيد، ليشاهدوا كيفية الإلقاء وصناعة التدريس، فيزيدوا على ما هو عندهم من حسن الأسلوب، إذ أهل القطر التونسي يتفانون في هذا الميدان ويدخلون عليه التحسينات يوميا.

ولنرجع إلى تونس قائلا: إن من جملة ما يسر به كل مسلم تنظيم الزيتونة وما أدراك ما الزيتونة، فقد حوت هذه الكلية ما ينيف عن ألفي تلميذ وما يقرب من ثمانين مدرسا، كلهم علماء جامعيون بين العلوم الدينية والاطلاع على الأحوال الوقتية، ومحصلون

على عدة علوم الأسلاف رحمهم الله المسماة الآن ظلما وعدوانا وتعديا على آبائنا الكرام بالعلوم العصرية حتى جنى عليها هذا الاسم وحكم عليها بالرفض أزمانا طويلة.

دخلت الزيتونة منذ عهد قريب في طور جديد من حيث الترتيب المسمى بالتنظيم مع الاختصار المفيد دون التطويل الممل، فظهر من ذلك ما أرضى الجميع من النتائج الحسنة، كيف لا والتلاميذ مطالبون بحضور دروسهم في أوقاتها وملزمون بالامتحان في آخر كل سنة للاطلاع على مبلغهم من العلم، وبذلك يحصل التنافس بينهم في الاجتهاد، وأما الفنون التي تدرس فهي معينة على حسب المراتب، وكذلك العلوم العصرية لمن أراد قراءتها كعلم الحساب والجبر والجغرافية والهيأة والفلك والتاريخ الإسلامي وغير ذلك.

لكن إن من جملة الأمور التي أعانت الزيتونة على الوصول إلى هذه النتيجة، هو إعطاء المدرسين المرتبات التي كفتهم مؤونة التخمين عن دقيق العيال حالة الدرس واللحم حالة المطالعة حتى إن بعض الأساتذة يقبض شهريا خمسمائة فرنك.

وما تحسنت العدلية في القطر التونسي وأعطيت المناصب لمستحقها واحترمت الحقوق حتى تخرج رجال التنظيم بإجازاتهم الاستحقاقية، فتوصلوا بها إلى الخطط العالية، لا بحسن علاقاتهم بالعدلية، كيف لا والأحوال تغيرت والقضاة صاروا مخاطبين زيادة على معارفهم الفقهية بالاطلاع على القوانين وظهائر أميرهم (الباي) الجديدة ليعرفوا علاقتهم وليفكوا النوازل الحادثة.

ومما زادني طربًا وابتهجت به جوارحي احترام ساداتنا العلماء عند جميع الأهالي على اختلاف طبقاتهم بحيث إن للعالم عندهم سلطة لا توازيها سلطة الأب على ابنه، ولا السيد على خادمه، وبذلك عرف كل مقامه، ولم يقع بين العامة والعلماء أدنى خلاف، وأظن أن الحامل على ذلك هي محبة العلماء بعضهم بعضا، بحيث إنك إذا سألت أحدهم عن الآخر لا تسمع منه إلا تعظيمه واحترامه كأنه يتكلم عن نفسه، وحيث إن الله جعلهم مصابيح الأمة استنار الكل بنورهم وبقوا في الدرجة التي خصها الله لهم من جعل محبتهم من شعار الإسلام، كيف لا وهم حاملوا الشريعة المحمدية وناشروا لوائها في العالم.

ومن جملة الأمور التي حصلت على حظوة عظيمة في سبيل التقدم الملاجئ الخيرية المنتشرة بالقطر التونسي إذ أنها رغمًا على الحظ الأوفر الذي لها في الميزانية الدولية لم تحرم التفات الأمة لها بحيث أن أكثر افتخار التونسيين هو التحصيل على الدرجة الأولى في الصدقات على هذه الملاجئ رحمة بالضعفاء وبعدا من سوء تربية الأبناء، ولهم اعتناء زائد بأبناء الفقراء من إكراههم على الدخول إلى المدارس الصناعية الوقتية لتعلم جميع الصنائع الأوروبوية من كهربائية وميكانيكية وفلاحية على النمط العصري، إذ لم يروا فائدة في الاكتفاء بالصنائع القديمة مع محافظتهم عليها.

وإني لأرجو لوطننا العزيز الاقتداء بهم في هذا الميدان المهم ولو كان عندنا ما نفتخر به عليهم من الصنائع التي لم يبق لها أثر في الشمال الإفريقي إلا عندنا كرونق البناء وحسن الزليج وإتقان تزويق الجبس، بحيث إن من جملة ما قص علي الفاضل السيد قدور بن غبريط رئيس التشريفات حالة اجتماعي به في قسنطينة في هذه السفرة، إن جميع دراهم المسجد الباريسي صرفت في المغرب ولم يأخذ منها القطران الآخران إلا نزرا يسيرا لا يكاد يعد وهو ما صرف على الحمام لأنه لا يمكن التشبه بحمامات فاس كما لا يخفى حالها، واما بقية المواد من زليج وجبص وزركشة الخشب فكلها فاسية ومكناسية ومراكشية ولا يوجد في العملة غير المغاربة سوى ما يقرب من العشر، ولكن مع هذا إخواني الواجب علينا عدم الاكتفاء بهذه الصنائع، بل لا بد من مزاحمتنا الغير في صنائعهم كي نكون من الفائزين.

ومما زاد في علو رتبة التونسيين من حيث الأخلاق هو انتشار الجرائد بين طبقات الأمة التي ما فتئت تحارب البدع الضالة، لأن تونس مع ما قدمت لكم في شأنها، فإنها لا زالت تتألم بمصائب عظيمة من حيث الأوهام والخرافات لم يسعنا الوقت لشرحها غير انها ستنجلي عنهم رويدا بالسبب المذكور.

ومما أخذ بلبي اعتناء متخرجي المدارس العربية الفرنسوية التي ذكرت لكم بدروس الكليات في أوربا و في الجزائر للتحصيل على الشهادات العليا كشهادة الطب والهندسة وغيرهما بخلاف أولادنا هنا، فإنهم رغما على كونهم حصلوا في مدة قصيرة على معلومات ذات شأن دلت على ما عندهم من العقل السامي، لكن يا حبذا لو عززوها بالدروس العليا في الكليات كي تطأطأ الرؤوس امامهم، إذ القراءة الحقيقية هي

التي تؤهل صاحبها إلى التحصيل على السيادة بكل معاني الكلمة كي يسهل عليهم رفع الخلاف الواقع بينهم وبين من يسمونهم بالأقدمين، إذ لا أرى لمحق الجفاء الحاصل بين الفريقين، إلا بلوغ الشبان أقصى درجة من العلم والمحافظة على العوائد الدينية ومحاربة العوائد الذميمة السافلة التي ليست من الدين في شيء بتمام الرفق وكمال الأدب، لأن العادة كما لا يخفى على سيادتكم هي الطبيعة الخامسة من بني الإنسان، فلا يمكن إزالتها إلا بعد الكد والاجتهاد في تقديم النصائح بلطافة على طول الأيام، لأن ما يعلق بفكر الانسان فيما بين السادسة والسنة العشرين من عمره يأخذ من فكره مركزا ساميا لا يزعزعه إلا العلم النافع وذوق حلاوة الأخلاق المحمدية وسماع نصيحة أهل العلم، ولا يخذلنكم في اتباع دروسكم إلى النهاية خوف المعترضين، لأن التحصيل على رضى الناس كلهم كاد أن يكون انذر من الإبريز الأحمر، إذ اختلاف العقول كاختلاف الوجوه.

واجتهدوا في لغة اجدادكم فإن حياة الأمة بحياة لغتها، ولا يمكنك التوصل للغاية المقصودة إلا إذا بنيتم أساس تعليمكم على العربية، أليس من العار علينا (مع أن المدارس فاتحة أبوابها منذ ثلاثة عشر سنة في إيالتنا) عدم التحصيل او الاقتراب من جوائز طبية وهندسية وحقوقية، وغيرنا كما قلت لكم من التونسيين حصلوا على أربعين حقوقيا ومثلهم عددًا في الطب والهندسة وغير ذلك من الفنون، أتزعمون أنكم تزاحمون اليهود في المناصب العالية بتلك الدروس التي حصلتم عليها، كلا ثم كلا وقد كنت عاتبت بعض مديري البنوك على استخدامهم اليهود دون أولاد المسلمين فأجابوني بأن سبب ذلك قصور أولاد المسلمين في المعارف وعد كمال دروسهم، وليس هذا اللوم متوجها عليكم وحدكم بل أكثره على آبائكم، حيث أنهم لم يشعروا بهذه الزلة العظيمة.

ومن المصائب على التعليم أيضًا بطالتكم وتخلفكم عن أوقات الدروس ولأجل ذلك جعلت الأمم الراقية عقوبات زاجرة للتلميذ على البطالة مع انه يجب عليكم أن تعينوا انفسكم بانفسكم، لأن من عرف ما قصد هان عليه ما وجد، ولا يمكن تخلف ابن الأوروباوي او الإسرائيلي عن وقته إلا للمرض الشديد، وبهذه المناسبة أرجوكم سادتي المسامحة بترك الموضوع هنيأة لأقص عليكم هي من أحسن القصص في بابها. وهو أني اجتمعت بأحد كبراء البلدة عقلا وأدبا بعد بروز المقالة التي كنت قدمت لكم في

الجمعة الماضية في الأخبار التلغرافية فروجت معه الكلام في شأنها وطلبت منه نصيحتي فيما كنت غالطا فيه من الأفكار، لأن الانسان في محل السهو والغلط، فأجابني: بأن كلاما قلته في بابه حسن، سوى انه ينتقم على مس عواطف إخواننا الجزائريين بقولي إنهم عبيد لليهود، فقلت معاذ الله أن أهين إخواني الجزائريين، وإنهم الذين بكوا لي حالتهم كما قدمت لكم، واللفظ المستعمل هو لفظ أكثرهم، ولم أعني بذلك السيادة الدينية إذ لفظة السيد كما لا يخفى هو من يلجأ إليه عند الشدائد، فاليهودي في الجزائر هو الذي يقوم بزريعة المسلم في حرثه، وهو الذي يسبق له ثمن الحصاد. ونتائج المزروعات كلها تصل إلى يده لأنه الواسطة الوحيد بينه وبين الديار الأوروباوية المشتغلة بالتجارة، وهو ترجمانهم في المحاكم كلها، وهو المدافع عنهم لجهلهم اللغة عند الملمات، وكثير من هذا، أليس أيها الأخ المعترض هذه عين السيادة، وإني مع الأسف أقول أن من أراد أن ينظر بعين البصيرة ولا يكتفي بما نحن فيه ولا يغتر بالظواهر يشاهد ذلك حتى في بلادنا العزيزة، ولقد شعر السادات الحكام بهذا الداء العضال الذي مد لنا يد الإعدام فحاولوا إحداث جمعية فرضية فلاحية تغني أهل الفبائل من شر هذه المصيبة، وإننا نود من صميم أفئدتنا أن لا يبقى هذا المشروع حبرا على ورق، بل يبرز إلى حيز العمل الحقيقي.

وليس هذا هو السهم الوحيد الذي نخافه إن بقينا على حالنا من الركون إلى الجهل ومعاداة المدارس فإن الأمر يكون أدهى وأمر، كيف لا وإذا نظرت إلى فاس دون بقية المغرب الذي هو أحط من فاس فإنك تجد بالملاح ما يقرب إلى ثلاثة ألف تلميذ مع أن عدد سكانهم عشرة آلاف، وبالمدينة واأسفاه لم يجد ثمانمائة تلميذ وعددنا لا يقل عن مائة ألف، ناشدتك الله أيها السيد كيف تكون حالة أولادنا مع هذا الجيش العرمرم الذي سيعمر إدارات البنوك وفنادق البيع والشراء والأراضي الخصبة لما تضيق مواد التجارة والإدارات كلها.

ونحن لا نعترض على اليهود فيما يفعلون لأنهم يزاحمون في معترك الحياة، فالواجب علينا أيها الأخ المعترض أن نرى الحقائق على ما هي عليه وأن نسمع نصائح من يعلن لنا بما فينا من دائنا القتال حيث أننا وصلنا إلى حالة لم يبق أدون منها عوضا عن مداهنة بعضنا بعضا، وكتمان الحقيقة كي نحصل على رضا العامة، حتى ياتينا يوم الندم ولات حين مندم، وما أحسن ما تقوله العامة في مثلها (خذ كلام من يبكيك، ولا

تأخذ كلام من يضحكك)، وتقول أيضًا: (بكيه فالصغر يضحكك في الكبر) (فقد أضحكنا الأمم فينا بتفريطنا).

أيها الأخ؛ لا شك أنك تعذرني إن قصصت عليك قصة سيد جليل حافظ المخزن بلدته ولم يعترض على ذلك العمل اعتمادا على العمل القديم، فلما فاته الأبان رام انتزاعها من يد المخزن السعيد، فشدت الأبواب في وجهه فأتاني طالبًا رفع القضية إلى المجلس البلدي، فعجبت من مطلبه وقلت له ضاع وقتك ألم تطلع على الجريدة الرسمية التي برز بها تحديد بلادك، ألم تعرف الظهير الشريف الذي يجب على المسلمين اتخاذه حرزًا حصينًا في شان المحافظة، فأجابني بأنه لم يتقدم له سماع وجود جريدة بالمغرب إلا السعادة، وإنه تلا عددها الأخير، ولم يجد بها ذكرا لبلده، وإنما حمله على التشكي وجود علامات قيل له إنها وضعت ببلاده منذ أربعة أشهر، فقلت له: يا مولاي لا تنفعك الفتاوي المتقدمة ولا المتأخرة في هذا الميدان، وعليك حيث إنك من ذوي الثروة كي لا تضيع لك بقية الأملاك بالاشتراك في الجريدة الرسمية وقراءة أولادك العلوم النافعة ليترجموا لك الظهائر الشريفة الصادرة كل يوم.

يا مولاي؛ ناشدتك الله لو طلب منك صرف عشر ثمن القطعة التي قضى عليها جهلنا بالقوانين الجارية، وأكرهت على الصبر عليها في سبيل تعلم أولاد حومتك هل تسمح به نفسك وتطيب، فعندي أن الجهل يؤدي بنا إلى اكثر مما قصصت علي إن لم نبادر إلى المشاريع العلمية، ونوجب على أغنيائنا إعانة فقرائنا في التعليم، ولا أريد بالغنى هنا ذا الثروة العظيمة، بل خطابي لكل مقتدر على صرف نحو العشرين فرنكا على عياله يوميا، أن يخصص منها فرنكا واحدا لهذا المشروع، فأجابني بقوله: قد شفيت الغليل في الداء وبرهنت عن الدواء ولكن ياسيدي الحجوي من يسمع لكلامك منا، فقلت له: لقد قلت حقا وإني لا أجهل هذا القدر، لكن مقصود نصيحتي وتألمي الخوف من ضياع الوقت قبل ان يتمكن منا سوط الفقر والندم، كما حققت لكم وقع لغيرنا وإلا فإني قد قمت بالواجب الوطني القاضي علي بذلك والذي سيحفظه التاريخ من بعدي فارحم به أو اشتم.

ولنرجع إلى تمام الكلام في موضوعنا فنقول: لما أفاق السادات التونسيون من غفلتهم القديمة لم يكتفوا بالمبادرة إلى تربية الأولاد بل صاروا يطلبون الدواء لمن اشتعل رأسه شيبان ولذلك نظموا دروسا ليلية لتعليم اللغة العربية والفرنسوية ـ

وتعاطي العلوم باللغة الفرنسوية وترجمتها لمن فاتهم الوقت، وأفضل درس عندهم درس الحقوق، ولما حضرته تذكرت ما أحدثت أوامر سيادة المارشال ليوطي من إلقاء بعض الدروس بواسطة حقوقيين أقتصر منهم على ذكر رئيس المكتب الاقتصادي المسيو فاتي الذي هو قائم بدرس في الحقوق التجارية يوما في الأسبوع، غير ان الفرق هو ان درسنا غير مترجم ودرسهم مترجم، ونود من سيادة المدير المسيو مارتي ان يترجم هذه الدروس التجارية ويبثها بين طبقات العامة، كما نامل بإعانته التوصل إلى الأماني المشار لها في هذه المسامرة منطوقا ومفهوما ونحن على يقين في صهر الحاضرين من رجال الحكومة على ترقيتنا وعلى الأخص منهم بالذكر سعادة المارشال ليوطي والمعينين له سيادة الجنرال دو شرف وسيادة الكومندان شاستيني ومجادة المسيو مارتي وسيادة القبطان لوكفيل وسيادة المندوب المخزني المسيو طروشي، ونرفع جميع أصواتنا بالدعاء لأميرنا مولانا يوسف أدام الله عزه، كما نشكر الحاضرين الذين شرفونا فردًا فردًا، هذا وتغريدي في هذه المسامرة كتغريد مقصوص الجناح، فالمرجو من السادات السامعين ان يرشدوا من وراءهم، وليبلغ الشاهد الغائب، وأن يسعى كل فرد في كيفية الترقي والنمو في المعارف والتجارة والصنائع والزراعة، وأن تتحسن الأخلاق وتترك البدع مع نبذ النفاق إذ هو أصل كل بلية وشقاق وان يعظم من ارتقت معارفه لا من عظمت وجاهته ونفعه خاص بها وفيها مصارفه.

وبالجملة فالمحافظة المحافظة على مراتب الإصلاح عله في المستقبل يكون لنا نجاح، فيا سعد من يبشرني بعدم نبذ ما أشرنا له وشرحناه وبيناه ووضحناه وأن لا تطرح هذه المسامرة كما طرح من قبلها، وأن لا تشتم كما شتم ما سبقها، إذ قل ما ينجو مؤلف من العثرات، أو مسامر من الهفوات، والله المرجو في الفلاح.